عشر سنوات على الاجتياح الصهيوني للبنان

الايديولوجيا والعناد

(إلى صديقي نعمان الذي رحل قبل الأوان)

د. سماح ادريس

I ـ لعلّ أكثر الأفكار رواجاً خلال الأعوام العشرة الأخيرة وعلى امتداد العالم قد كانت ـ ولا تزال ـ الفكرة القائلة بـ «موت الايديولوجيا». فالحال أنّ الهجوم على مفهوم الايديولوجيا قديم، لكن ضراوة الهجوم لم تبرز بمثل القوّة التي نشهدها اليوم. ولعلّ مردّ هذه الضراوة إلى تضافر جهود كثير ممّن كانوا ينتمون إلى اليسار الثوري، وجهودِ أولئك الذين يميلون إلى تبنّي أفكار «ما بعد حداثيّة» بتأثيرٍ بيّنٍ من الفيلسوف نيتشه.

وليس من الصعب إذا تلفّت الإنسانُ حوله أن يرى أصدقاءه ومعارفه وغيرَ هؤلاء وأولئك على منابر الصحافة والإعلام، وفي صالونات الحلاقة أو «صبحيّات» النسوة، أو أمسيات الشباب الراقصة التي يتخلّلها بعضُ الأحاديث «الجدّيّة»، يرمون شخصاً ما بـ «الأدلجة» أو يتّهمونه بأنّ حديثه «ايديولوجي» ومنطقه كذلك. وبدهيٌّ أنّ مِثل هذا الحكم يُترجَم في هذه الحالة إلى ما يلي: «إنّ فكركَ أيّها الصديق العزيز متحجّر، لأنّه ينطلق من أفكارٍ مُسبّقة تُشوّه فهمك للمسألة المطروحة»؛ أو قد يُترجم إلى ما يلي: «إنّ حماسك أيّها الصديق لأفكارك حماسٌ غير عمليّ ولاعقلانيّ، لكونه ينطلق من عواطفك المتأجّجة ورغباتك الجامحة وإرادتك المخلصة ـ حقّاً! ـ لا من شروطِ الواقع المعيش وإمكاناتهِ واحتمالاته».

فلو حاولنا تقصّي الآراء السياسيّة التي تداولها كثيرٌ من اللبنانيّين والعرب في السنوات العشر الأخيرة لخصصنا الآراء التالية بالقسط الأكبر:

ـ الاشتراكية وعيٌ مُضَلَّلٌ، وهذا ما أثبتته تجربةُ الانهيارات المدويّة في بلدان ما كُنتَ، أيّها الصديق، تُطلق عليها لقب «المنظومة الاشتراكيّة»؛

ـ المقاومة، شعبيّة كانت أم مسلّحة، فعلٌ عبثيّ عقيم، لأنّها تستندُ إلى عملية «غسل دماغ» ايديولوجي يقومُ بها القادةُ السياسيّون ورجال الدين والمثقّفون السلطويّون والمعارضون الغوغائيّون؛

ـ والمقاومة، علاوةً على عبثيّتها وعقمها، ليست إلّا ميليشيات و«زواريب» وأعمال خطف على الهويّة، كما أنّ المقاومين ما هم إلّا «زعران» يسرقون أجهزة التلفزيون والڤيديو ويقتلون كُلَّ من يناهضهم بحجّة «التعامل مع العدوّ». أمّا المقاومون الشرفاء فالله يساعدهم: لقد استغلّهم الزعماء من أجل قبض الأموال من هذا النظام العربي أو ذاك؛

ـ والإسلام تضليلٌ بجنّة مزعومة؛

ـ أمّا الوحدة العربية فوَهْمٌ، وحلمٌ، وأسطورة ايديولوجيّة بناها الزعماء ومثقّفوهم التابعون العملاء، وما انفكّوا حتى اليوم ينفحون في قِربها المثقوبة؛

ـ وأمّا النظام الرأسمالي، ومثاله الأعلى نظام الولايات المتحدة الأمريكيّة، فهو نقيض الايديولوجيا؛ بمعنى أنّه لا يخضع لحقائق مطلقة مسبقة وإنّما ينبع من التجريب والبراغماتيّة والعملانيّة.

باختصار، يقول الكثير من الأصدقاء والمعارف لِكُلّ من يخالفهم آراءهم تلك: «أيّها الصديق، أنت مخطئ وواهم، ولا تزال تعيش في أجواء الخمسينات وأوائل الستّينات. وما إصرارك على أفكارك إلّا ضربٌ من العناد. اعذُرنا، أيّها العزيز، على وقاحتنا، لكنّك تَيْس!»

II ـ إنّ أيّ إنسان موضوعي لا يستطيع إلّا أن يُسلّم بصحّة الكثير من أفكار أولئك الأصدقاء والمعارف. فالواقع أن ليس في مكنة أحد منّا أن ينفي انهيار المنظومة الاشتراكيّة، ولا تضليل القادة ورجال الدين، ولا انحراف المقاومة أحياناً كثيرة عن أهدافها الأولى؛ كما أنّه ليس في مقدور أحد منّا أن ينفي الإنجازات التي أحرزتها الأنظمة الرأسماليّة على صعيد التكنولوجيا وعلى صعيد إتاحة مجالات أكبر وأوسع حرّيةً للتعبير عن الفكر.

بيد أن ما يهمّنا هَهنا ليسَ الشكّ في صحّة تعميماتهم تلك ـ فهذا أمرٌ قد سَبَقَنا إليه الكثيرون ـ وإنّما يهمّنا التساؤل عن «جدارتنا» في حمل لقب «ايديولوجي» الذي خلعوه علينا، نحن معشر المنادين بالمقاومة والاشتراكيّة والوحدة العربيّة والتلاؤم بين حاضرنا وقيم تراثنا الماديّة والروحيّة. كما يهمّنا أن نتساءل عن براءتهم من ذلك اللقب.

وهذا يستدعي الحديث عن الايديولوجيا. وهذه لا تعريف واحداً لها، وإن كان أكثر تعريفاتها شيوعاً ما يلي:

أ ـ الايديولوجيا عمليّة إنتاج المعاني والرموز والقيم في الحياة الاجتماعية؛

ب ـ إنّها مجموع الأفكار التي تختصُّ بها فئةٌ أو طبقة اجتماعيّة ما؛

ج ـ إنّها مجموع الأفكار التي تُسهم في تشريع (Legitimation) قوّة سياسيّة مسيْطِرة؛

د ـ إنّها مجموع الأفكار الخاطئة التي تُسهم في تشريع قوّة سياسيّة مسيطرة؛

هـ ـ إنّها أنماطُ تفكيرٍ مُسبَّقة، دافعُها مصالحُ اجتماعيّةٌ معيّنة.

III ـ فلنتّفقْ أوّلاً على قصور التعريف الثالث عن تبيان حقيقة الايديولوجيا. فالحال أنْ ليس كُلُّ نظام فكريّ مرتبطاً على الدوام بقوّة سياسيّة **مهيْمنة**، بل إنّه كثيراً ما يرتبط بفكر القوى الاجتماعيّة المعارضة (كحركة الأقليّات العرقيّة والحركة النسائيّة) أو بفكر القوى السياسيّة المعارضة (كاليسار). كما أن القوّة ـ على نحو ما أثبت «ميشال فوكو» وأتباعه ـ لا يُمكن أن تكون مقصورة على الجيوش ولا على المجالس النيابيّة «التمثيليّة»، وإنّما هي شبكة معقّدة متشعّبة تتغلغلُ في ثنايا الأفراد والمجتمع، بل في أدقّ حركاتنا وتفوّهاتنا.[1] وهذا ما دفع بـ «فوكو» وأتباعه إلى نبذ مفهوم «الايديولوجيا» نبذاً مطلقاً، وإلى إحلال مفهوم «الخطاب» أو «الإنشاء» أو «القول» (discourse) مكانه.

غير أنه يتوجّب علينا، ثانياً، أن نؤكّد مع النّاقد «تيري إيجلتون» على أنّ مثل ذلك النبذ المطلق يُضيّع الفوارق الهامّة بين ما هو محضُ صراعٍ آنيّ جزئي غير مركزيّ، وما هو صراعٌ أساسي مركزيّ صميميّ في الحياة الاجتماعيّة.[2] إنّ جدلاً ينشأ بين رجلٍ وزوجته على مائدة الفطور حول درجة سخونة الشاي أو القهوة ليسَ إيديولوجياً بالضرورة؛ غير أنّه لا مندوحة من أن يُصبح كذلك حين يتّسع ذلك الجدال ليطولَ مسائلَ تتعلّق بالسيطرة الجنسيّة أو بالأدوار التي «ينبغي» على كُلّ جنسٍ من الجنسيْن أن «يتقيّد» بها. وهذا ما يدفعنا إلى إثبات مقولة «إيجلتون» التالية: إنّ القول لا يكون ايديولوجيّاً في معزلٍ عن قائله ـ أولاً ـ، ومَنْ يُوَجَّهُ إليه ـ ثانياً ـ، والأهدافِ المركزيّة الأساسيّة التي تتخطّى مجرّدَ النطقِ بالقول ـ ثالثاً.

ولنتّفقْ، ثالثاً، على ضلال الرأي القائل بأن الايديولوجيا محضُ «وعيٍ خاطئٍ مُضَلّل». فهذا الرأي يفترض أنّ ثمّة أفكاراً «تطابق» الواقع مطابقةً تامّة، وأُخرى لا تُطابقه؛ كما يفترض أن ثمّة أشخاصاً معيّنين يحوزون معرفةً ووعياً صائبيْن، وآخرين لا يحوزونهما. وممّا لا شكَّ فيه أنَّ كثيراً من المثقّفين اليوم يمقتون ذلك الرأي لما فيه من ازدراء للشعب رغم ما قد يسبغه القادة على هذا الشعب من خصال الشهامة والبطولة والتقدّم.

ولنؤكّد، رابعاً، على الفرق البيّن بين «الايديولوجيا» و«التحجّر». فإنَّ عدداً منّا اليوم لا يزال يقرن بين التحجّر والأفكار المُسبقة. بيْد أن علم المعرفة، والنقد الأدبي ـ ولا سيّما عبر نظريّة «ردود فعل القارئ»[3] ـ، كما التجارب اليوميّة المحسوسة تثبت بما لا

---

(١) Michel Foucault, **Power/ Knowledge**. Edited by Colin Gordon, (New York: Pantheon Books, 1980), p. 68.

(٢) Terry Eagleton, **Ideology: an Introduction**. (London: Verso, 1991), p. 7.

(٣) راجع الكتاب الهامّ الذي أشرفت عليه Jane Tompkins وعنوانه - **Reader Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism,** (Baltimore and London: The Johns Hopkins University Press, 1980).

يدع مجالاً للشكّ أنّ العقل الإنساني مليء بالافتراضات المسبقة التي لا تتمّ معرفةٌ بدونها! . بل إنّ هذه الافتراضات كثيراً ما تكون شائعة بين أفراد مجتمع ما؛ وفي هذا الصدد يُعلّق «تومپكينز» على «ستانلي فيش» فيقول:

> إنّ القارئ يستجيب للكلمات المخطوطة على الصفحة بطريقةٍ دون أخرى لكونه يعمل وفقَ مجموعة القوانين التي استخدمها المؤلِّف نفسُه لإنتاج تلك الكلمات.(١)

ولهذا، فإن تحجّرنا آفة؛ غير أنّ أفكارنا المُسبقة ليست بالضرورة كذلك!

IV ـ على أنّ أهمّ ما يجب التشديد عليه بعد كُلّ ما تقدّم هو أنّ ثبات الايديولوجيّات وانتشارها ـ ماديّة كانت أم روحيّة، «عقلانيّة» أم «غيبيّة»، على ما في هذه التعريفات من تعسّف وقصور ـ يشيران ولا ريب إلى رغبات وحاجاتٍ شعبيّة أصيلة. فليس من المعقول أن تؤمن أعدادٌ ضخمةٌ من الجماهير بأفكارٍ غير ذات معنى وَطوَال فترة سحيقة من الزمن؛ كما أنّه ليس من المعقول أن تُعَذَّبَ أجيالٌ تلو أجيال، ويموتَ فتيانٌ وفتياتٌ وشيوخٌ ورجالٌ ونساء من أجل قضايا لا معنى لها ومن أجلِ أهداف «ضُلِّلوا» بها عشرات السنين بل مئاتها.

إلاّ أنّه لا ينبغي بَعْدَ تأكيد «وظيفيّة» الايديولوجيا ـ عنيْتُ كونَها تعبيراً عن حالة سلوكيّة شعوريّة مجتمعيّة ـ أن نقفز إلى ضفّة «الشعبويّة» (populism) التي عرّفها المنظِّر السياسي الأمريكي «ادوارد شيلز» بالكلمات التالية:

> إنّها إيمانٌ بإبداعِ الناس العاديّين [أي غير المتعلّمين وغير المثقّفين] وبقيمهم الأخلاقيّة العليا. وهي ترى فضيلَتَهم في خصائصهم الحقيقيّة [الحاليّة] أو في إمكاناتهم المستقبليّة سواءً بسواء.(٢)

فالحالُ أنّ كثيراً ممّا تقوله «الجماهير» خاطئ، بمعنى أنّه غير مستند إلى أُسس علميّة، وإنْ كانَ مؤشّراً على حقائق أخرى تتعلّق بتطوّر المجتمع وبناه الماديّة والروحيّة. فالقول إنّ النساء أقلُّ عقلاً من الرجال قولٌ خاطئٌ من الناحية العلميّة خطأً فادحاً، وإنْ كان يرتكز إلى بنية دينيّة فكريّة اجتماعية معيّنة نمت عبر السنين والعقود.

V ـ كيف نترجم بعضَ ما قلناه على صعيد بعض أحداث السنوات العشر الأخيرة في الوطن العربي والعالم؟

(١) المصدر السابق، ص **xvii**.

(٢) Edward Shils, **The Intellectuals and the Powers**, (Chicago and London: The University of Chicago Press, 1972), p. 20.

* أوّل ما يجب أن نلحظه هو ضرورة عدم السماح لأنفسنا بالانسياق وراء التعميمات التي يطلقها على أسماعنا المبشّرون بـ «موت الايديولوجيا»، يمينيّين كانوا أم يساريّين، حداثيّين أم تقليديّين. ولعلّ أكثر من أطلق هذا الشعار عقب انتهاء الحرب العالميّة الثانية قد كانوا أتباع الديموقراطيّة كما مورست في الولايات المتحدة الأمريكيّة. فحسب أولئك الأتباع ـ على نحو ما لاحظ «إيجلتون» مرّةً أخرى ـ فإنّ إرسال دبّابات إلى تشيكوسلوڤاكيا دليلٌ على التعصّب الايديولوجي الذي ينتهجه الاتحاد السوڤياتي؛ في حين أنّ البحث عن هدف سياسي «متواضع وپراغماتي» من نوع قيام الولايات المتحدة بإسقاط حكومة ديموقراطيّة انتخبها الشعبُ التشيلي انتخاباً مباشراً هو ـ في رأي أولئك أنفسهم ـ «تأقلمٌ واقعيٌّ مع حقائق الحياة»!(١)

وفي هذا الصدد لا بُدّ من إبراز الملاحظتين التاليتيْن:

أوّلاً: إنّ المطالبة بأهداف «متواضعة وپراغماتية» هي الأُخرى تعبير عن موقف ايديولوجي يرفضُ الرهان على المستقبل، وإنْ كان هذا الرفض كثيراً ما يؤدّي إلى دمار المستقبل بحجّة الحفاظ على «رفاهية» الحاضر. إنّ مئات الآلاف من الناس سوف يموتون من سرطان الجلد أو سوف يُصابون بالسُّدّ(٢) بعد أن يتمّ تدمير طبقة الأوزون؛ ومع ذلك فإنّ الشركات الأمريكيّة تواصل بيْع الكيمياويّات الضّارّة بهدف زيادة أرباحها الآنيّة ليس إلاّ.

ثانياً: إنّ نقيض الايديولوجيا في رأي كثير من أولئك الأتباع هو الديموقراطيّة بالمعنى الأمريكي الرأسمالي. ولذلك فإنّه يجب التشديد الدائم، من قِبَلِنا، على مخالفة الولايات المتحدة عبر تاريخها المديد ـ الذي نحتفل بدخوله عامه الخمسمئة ـ للديموقراطية في كثيرٍ من بقاع العالم. يقول «نعوم تشومسكي»(٣) إنّ بلاده قد قلبت نظامَ الحكم في غواتيمالا عام ١٩٥٤ رغم شعبيّة هذا النظام العارمة باعتراف وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة ذاتها؛ وكان السبب في الانقلاب قيام غواتيمالا بخطوات حثيثة في مجال الإصلاح الزراعي وبناء القوميّة المستقلّة. ويضرب شومسكي مثالاً آخر على «ديموقراطية» أمريكا، هو رفضها قيام انتخابات حرّة في نيكاراغوا عام ١٩٨٤؛ فقد حرّضت إرهابيّي مجموعات «الكونترا» على ضرب مراكز الاقتراع لأنّ الانتخابات لم توافق شروط الولايات المتحدة؛ غير أنّ هذه

(١) Eagleton، المصدر المذكور سابقاً، ص ٤.

(٢) مصطلح طبّي موازٍ للفظ Cataracts، ويعني «إعتام عدسة العينْ».

(٣) محلّل سياسي وأستاذ اللسانيّات في جامعة أم. آي. تي. في الولايات المتحدة. وسوف تنشر **الآداب** في عددها القادم نصّ آخر مقابلة أجرتها معه مجلّة أمريكيّة.

عادت فوافقت على حصول انتخابات عام ١٩٩٠، ولكنْ بعد أن أنهكت البلاد بممارسات «الكونترا» الإرهابيّة وبالحصار الاقتصادي، فكان أن فاز مرشّح الولايات المتحدة.

ولا ينسى «تشومسكي» قبل إسدال الستار على الديموقراطيّة «العملانيّة» غير «المؤدلَجة» لسياسة أمريكا الخارجية أن يُذكّر بأنّ أمريكا قد قامت منذ خمسمئة سنة ـ على أيّام المرحوم «كريستوفر كولومبوس» ـ بأسوأ عمليْن من أعمال الإبادة الجماعيّة: تدمير الأمريكيّين الأصليّين الذّين كانوا يُقدّرون بعشرات الملايين(!)، وتحطيم أعدادٍ ضخمةٍ من الإفريقيّين عبر تجارة الرقيق.

** وأمّا ثاني ما يجب تأكيده فهو أنّ هزيمة أنظمةٍ ما لا تعني **بالضرورة هزيمة جميع** الأفكار التي تستند إليها، ولا تعني **بالضرورة** اضمحلالَ المشاعرِ والرغباتِ والحاجاتِ الشعبيَّة الأصيلةِ الظاهرةِ والدفينةِ التي حملت تلك الأنظمةَ إلى سُدّة الحكم أو غَذّت مخزونها بتشريعات فكريّة تبرّر قمعَ هذه الأنظمة وتسلُّطها. إنّ مقولة «فؤاد عجمي»[1] المشدِّدة على «موت القوميّة العربيّة» في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ورحيل الرئيس عبد الناصر، هي التي يجب أن تموت. والغريب أنّ هذه المقولة عادت إلى البروز مع فشل الرئيس صدام حسين في «ضمّ» الكويت إلى العراق صيف ١٩٩٠.

إنّنا نستغرب بروز هذه المقولة في أواخر الستّينات وعودتها إلى البروز اليوم، لأنّها تغفل حقائق أساسيّة. فلو صحّ أنّ فكرة الوحدة العربيّة قد ماتت، فكيف نُفسّر أنّ غالبيّة العرب يؤيّدونها، بشكلٍ أو بآخر، حسب استطلاع قام به د. سعد الدين ابراهيم وآخرون؟[2] وكيف نُعَلّل التظاهرات الحاشدة التي عمّت الوطن العربي عقب هزيمة ٦٧ وموت عبد النّاصر؟ أتُرانا نقول إنّ تلك التظاهرات قد كانت محض تعبير عن عجز الجماهير وتجديد ثقتها بالأب حتّى حين يكون مهزوماً؟ وكيف نُعَلّل التظاهرات التي حصلت عام ١٩٩٠ في الجزائر والأردن وفلسطين وتونس وموريتانيا والمغرب والسودان ولبنان وغير هذه البلدان، تأييداً للعراق؟ هل نقول إنّ جميع المتظاهرين كانوا «يبصمون» على جميع إجراءات النظام العراقي، أم نقول إنّهم كانوا يؤمنون بضرورة تقاسم العرب ثرواتهم فيما بينهم، وضرورة مواجهة «اسرائيل» بالسلاح الفتّاك، ووجوب وضع النفط في تصرّف العرب لا في تصرّف أعدائهم؟

ومن الممكن أن نقول شيئاً مماثلاً عن المقاومة في فلسطين وفي لبنان. فالحقّ أنّ هزيمة المقاومة الفلسطينيّة والحركة الوطنيّة اللبنانيّة في آب ١٩٨٢ لم تقضِ عليهما قضاءً مُبرماً؛ وهذا ما شهدت عليه الانتفاضةُ الفلسطينيّة، والعملياتُ العسكريّة الفلسطينيّة عبر بعض الجبهات العربيّة، والمقاومةُ الوطنيّة اللبنانيّة في مختلف المناطق المحتلّة. ويمكن القول بثقة تامّة إنّ تجاوزات المقاومة اللبنانيّة والفلسطينيّة ـ بما في ذلك مصادرة رأي الشعب المقهور أحياناً، وسرقة أجهزة التلفزيون والڤيديو، واحتلال الشقق، وقتل المخالفين بتلفيق تهم الخيانة بحقّ الوطن، واستشراء ظواهر المذهبيّة والشوفينيّة والاستسلام ـ لم تُنهِ المقاومتين رغم شراسة الهجوم وتضافر الأعداء. ذلك أنّ المقاومتيْن تستندان، بغضّ النظر عن التجاوزات وضيق أفق القادة، إلى رغبة شعبيّة أصيلة لا تقنع بما دون الاستقلال والحرّيّة.

*** وهذا ما يدفع بنا إلى تأكيد حقيقة ثالثة كادت أن تغيب في مَعْمعة التنظيرات الشامتة بـ «موت الايديولوجيا» والمُهلّلة للإغراقِ في قتلها. وهذه الحقيقة ـ وليعذُرْنا الجميع للكلمة المُستهلكة الممجوجة البعيدة عن زوح العصر، عصر النظام العالمي الجديد ـ هي «النّاس»، النّاس المثابرون على تحقيق أهدافهم. إنّ المُهلّلين لـ «موت الايديولوجيا» يُنظّرون كذلك لـ «موت» الجماهير الشعبيّة التي يؤكّدون أنّها قد شبعت موتاً بعد حزيران ١٩٨٢ وتدمير العراق.

ولا شكّ في أنّ الحديث عن سلبيّة الجماهير حديثٌ طويل وهامّ، وسوف يُسجّل أولئك المنظّرون ـ ويا للأسف! ـ نقاطاً كثيرةً لصالحهم. غير أنّ أبرز ما يطرحونه اليوم بديلاً «لاايديولوجيّاً» و«علميّاً» و«عقليّاً» عن تلك الجماهير هو التالي: العمل السياسي الديبلوماسي بما لا يتنافى مع الشرعيّة الدوليّة وأهداف النظام العالمي الجديد!

بيد أنّ المنظّرين للتقيّد بالشرعيّة الدوليّة وحدها وللعمل السياسي وحده ينسون أو يتناسون أنّ الأُسسَ الدُّنيا للعقلانيّة الحقّة تدعونا إلى عدم الاستكانة للشرعيّة الدوليّة التي أثبتت في السنتين الأخيرتيْن وقوعَها في أسر السياسة الأمريكيّة **الامبرياليّة** ـ وعذْراً مرّة ثانية لاستخدام مصطلحٍ ايديولوجيّ آخر. وينسى أولئك المنظّرون أو يتناسوْن أن الاعتماد على «الحربقة» و«الدهلزة» ولقاءات «خلدة» و«مدريد» و«جنيڤ» و«واشنطن» لن تحقّق وحدها الحرّيّة والاستقلال للضفّة والقطاع ـ كي لا نقول لكامل فلسطين ـ ولا للجنوب اللبناني والبقاع الغربي والجولان. إلّا أنْ يظنّ الظّانّون أنّ أشقّاءَنا المصريّين قد أبلَوْا بلاءً حسناً حين تخلّوْا عن «أوهامهم الايديولوجيّة»، فظفروا

(١) أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة «جونز هوپكنز» في الولايات المتحدة. أشهر كتبه **المأزق العربي، والإمام المختفي.**

(٢) الاستطلاع نُشر في كتاب هامّ صدر عن مركز دراسات الوحدة العربيّة في بيروت.

بسيناء معزولة... وبأعلامٍ اسرائيليّة ترفرف في سماء القاهرة، ووعودٍ جوفاء بالازدهار الاقتصادي والرخاء الاجتماعي.

إنّ ظروف العمل الشعبيّ والعسكريّ المنظَّم والموحّد صعبة اليوم، وقد تكون صعبةً جدّاً. فالدول العربيّة قد أغلقت أبوابها أمام العمل العسكري لجيوشها ولفصائل المقاومة الفلسطينيّة منذ ما قبل اجتياح ١٩٨٢؛ و«الشرعية اللبنانيّة» قزّمتْ البندقيّة الفلسطينيّة في الجنوب اللبناني؛ والنظام العالمي الجديد يعمل للإجهاز على آخر رمقٍ من العنفوان القومي العربي على الصعيد الرسميّ العربيّ؛ والعدوّ الصهيوني يبيّت اعتداءً محتملاً ضد الجنوب لكسر شوكة المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة. كلّ هذا صحيح. غير أنّ إقناعَ العقلاء بـ«حياد» أمريكا (أو تحييدها)، وبكسرِ شرّ اسرائيل بالحسنى وبالقرارات الدوليّة التي أعطتها ولا تزال تعطيها شرعيّةَ وجودها ذاته، لهو أمرٌ أبعدُ ما يكون عن العقلانيّة... بل إنّنا لا نغْلو إذا نحنُ رمينا دُعاته بالوهم «الايديولوجي» المُضَلِّلِ والمُضَلَّل!

VI ـ لا يَسَعُ هذه المقالة، انسجاماً مع أوهامها الايديولوجيّة الغارقة في أمنيات السبعينات والثمانينات، إلاّ أن تُنهي ذاتها بما دأب على التأكيد عليه جيلُنا الشابُّ آنذاك:

ـ باعتزازنا المطلق بالتحالف المُشرّف الذي ربط بين شعبيْنا اللبناني والفلسطيني؛

ـ وبالعمل على استنهاض مشروع علمانيّ لبنانيّ عروبيّ يتخطّى سلبيّات الحركة الوطنيّة اللبنانيّة قبيل ١٩٨٢ وبعدها، دون أن يتنكّر لمبادئها الأساسيّة؛

ـ وبالوفاء ـ كلمة أو فعلاً أو بهما معاً ـ لجحافل شهداء الغزو الاسرائيلي الهمجيّ: لبنانيّين وفلسطينيّين وسوريّين وعرباً آخرين، في صور وصيدا وعين الحلوة والرشيديّة وخلده والمتحف والرملة البيضاء والكولا وصبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وبرج أبي حيدر، وفي كُلِّ قرية ومدينة لبنانية رفضت ولاتزال ترفض أن تكون ضحيّة السلم العالمي المزعوم.

في مثل هذه الأيام لعشر سنوات خلت كان لبنان وكانت فلسطين يقبضان على حلمٍ يوشك أن ينسلّ بين أجفانهما. وكانا يرسمان بوجع حارق حيناً، وبقطرات شموع ذائبة أحياناً أخرى، تباشيرَ مقاومةٍ وطنيّةٍ لبنانيّةٍ وانتفاضةٍ فلسطينيّةٍ، وأحلاماً، و«أوهاماً» أخرى تفوق في أصالتها وإشراقها «حقائقَ» الطغيان.

اقرأ في العدد القادم من الآداب

■ **غسان كنفاني في ذكراه العشرين**

ـ قصّة حياة غسّان ترويها زوجته آني كنفاني.

ـ حوار مع أمّ سعد بطلة رواية أمّ سعد.

ـ حوار مع فاروق غندور.

ـ بالإضافة إلى مقالات عن كنفاني، كتبها د. فيصل درّاج، ومحمد دكروب، وآخرون.

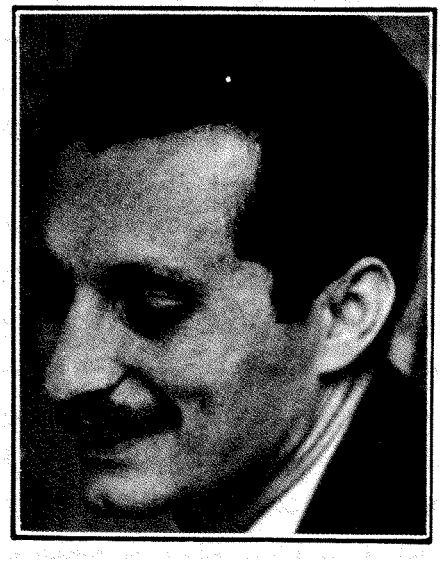

■ آخر حديث أُجري مع المحلِّل السياسي الأمريكي نعوم تشومسكي.

■ بالإضافة إلى قصص وأشعار متنوِّعة.